بين الفصحى والعامية
في التعبير الأدبي

محمد مندور

في دراسة مشكلة التعبير الادبي يجب ان نميز اولاً بين ما نسميه في عالمنا العربي بالادب الشعبي وبين ما نسميه بالأدب الفصيح . فالأدب الشعبي أدب غير منتسب ، بمعنى اننا لا نعرف قائله ، والكثير منه تكوّن عبر القرون عن طريق التراكم ، مثل ملاحمنا الشعبية المعروفة ، كملحمة عنترة العبسي وملحمة الهلالية وملحمة الظاهر بيبرس . اذ الراجح انها لم يكتبها شاعر او قصاص واحد ، بل اضاف الكثيرون من الشعراء والادباء الشعبيين المجهولين الى نواتها الاولى حتى اكتملت عن طريق التراكم ، كما قلنا ، واخذت الوضع الذي جمدها فيه فن الطباعة الحديث ، بعد ان ظلت سنين طويلة لا تحيا الا عن طريق الحفظ والرواية الشفوية ثم الاضافات المتتالية من الشعراء والقصاص المتجولين . كما ان لدينا الكثير من الاشعار الشعبية المجهولة المؤلف ، بعضها مطبوع وبعضها لا يزال ضمن المحفوظات والروايات الشعبية. ومن امثال ذلك الازجال والمواليا والبنود وتواشيح المالوف والملحون في تونس وغيرها وما اليها ، وكلها تكوّن اليوم جزءاً من تراثنا القومي لانستطيع ان نزدريه او نتنكر له ، بل على العكس يجب ان نعنى به ونجمعه وندرسه ونستشف منه روحنا القومية الاصيلة في صورتها التلقائية الصادقة . ولربما كان هذا التراث اقدر على تعريفنا نحن العرب بانفسنا وبألواننا المحلية المختلفة وبعاداتنا وتقاليدنا ، بل وسلم قيمنا الانساني والاجتماعي والاخلاقي . وهذا هو ما فعلناه بمصر بعد ثورتنا الاخيرة ، حيث انشأنا مركزا خاصا لجمع ودراسة فنوننا الشعبية ، واعددنا للافتتاح معهدا خاصا لهذه الفنون ، بل وانشأنا في اقدم جامعاتنا (وهي جامعة القاهرة) كرسيا خاصا باستاذية هذا الفن الشعبي داخل قسم الادب العربي في كلية الآداب.

ولا ادل على قيمة هذا التراث الشعبي من ان نرى شعراء وكتاب الادب الفصيح في عالمنا العربي المعاصر ، بل وفي العالم كله ، يستوحون هذا التراث . « فالف ليلة وليلة » قد اصبحت مصدر الهام للكثير من شعراء اوربا وكتابها وفنانيها منذ ظهور المذهب الرومانسي باوربا في القرن الماضي حتى وقتنا هذا . ومن المؤكد ان شخصية شهرزاد قد اصبحت اوسع الشخصيات الادبية العربية شهرة ومصدر الهام في العالم كله . ويكفي ان نذكر في

ادبنا العربي المعاصر مسرحيات « شهرزاد » للاستاذ توفيق الحكيم و « شهريار » للشاعر عزيز اباظة و « سر شهرزاد » للاستاذ علي احمد باكثير ورواية « احلام شهرزاد » للدكتور طه حسين ، لنتبين الى اي مدى يستمد كبار كتابنا اليوم موضوعاتهم ووحيهم من هذا التراث الشعبي الاصيل .

وعلى اية حال فلغة هذا التراث الشعبي ، التي تجمع بين العامية والفصحى ، لا تمثل اليوم في عالمنا العربي مشكلة ولا تثير نقاشا او جدلا ، وانما يجري الجدل والمناقشة حول استخدام بعض الكتاب في الاقطار العربية المختلفة لهجاتهم المحلية بدلا من الفصحى كوسيلة للتعبير في بعض فنون الادب . وينكر عليهم البعض هذا المنهج ، ويشتد الجدل بين الفريقين على نحو يستوجب النظر في الحجج التي يقدمها كل من الطرفين للدفاع عن موقفه .

وهذه الحجج مختلفة المصادر ، منها القومي ومنها الديني ومنها السياسي ، كما ان منها الفني الخالص الذي يدور حول المفاضلة بين الفصحى واللهجات المحلية من حيث القدرة على التعبير والقدرة على مس مشاعر كل شعب واثارتها ، وبالتالي التأثير في هذا الشعب .

فمن الناحية القومية لا شك ان اللغة الفصحى هي اهم دعائم الوحدة العربية ووسيلة التفاهم الاساسية بين الشعوب العربية المختلفة ، كما انها لغة التراث العربي الخالد الذي تتغذى به جميع الشعوب العربية وتكوّن ذوقها وقيمها الانسانية والاجتماعية والاخلاقية ، بحيث يعتبر التخلي عن الفصحى تخليا عن الاساس المتين الذي تقوم عليه القومية العربية والوحدة بين شعوبها .

ولما كانت اللغة الفصحى هي لغة القرآن ، وعاء الدين بالنسبة للمسلمين الذين تتكون منهم غالبية الشعوب العربية ، فان التخلي عن الفصحى يرى فيه الكثيرون تهديدا للدين واستهانة بالقرآن .

وعلى العكس من ذلك نرى ان الفلسفة الاشتراكية التي انتشرت في العالم العربي ، بل والآخذة في الانتشار في العالم كله ، تقتضي مخاطبة الشعوب بلغات حياتها اي بلهجاتها العامية . كما انها لا تكتفي بالتراث الشعبي ، بل تدعو الى تنميته والاضافة اليه وتركيز الاهتمام على الفنون الادبية التي تعبر عن الشعب بلغته وتخاطبه باللغة التي لا يفهمها فحسب بل ويحسها ايضا بحكم مخالطتها المستمرة لحياته وافراحه واحزانه ومواضع اهتمامه . وان يكن هناك من يرون انه لا تعارض بين الفصحى والفلسفة الاشتراكية الشعبية ، فالاشتراكية من اولى مبادئها القضاء على الامية ونشر التعليم والثقافة على اوسع نطاق واعمقه حتى يصبح من الممكن مخاطبة الشعوب العربية كلها باللغة الفصحى . ومن المؤكد ان القضاء على الامية والجهل لن يدع هناك مبررا لاستخدام العامية ، خاصة وان اللغة الفصحى سوف تتطور

نحو البساطة واليسر ، كما انها سوف تتسع لكافة المعاني والمصطلحات الحضارية والعلمية الجديدة ، بانتشار التعليم والتطور الحضاري في ظل الاشتراكية والعدالة الاجتماعية . ومن الممكن ، بتيسير اللغة الفصحى وتطوير لغة او لهجة الحياة نتيجة لانتشار الثقافة والتعليم ، ان تقترب المسافة بين الفصحى واللهجات العامية شيئا فشيئا حتى يتمحي ما يمكن ان نسميه الآن بالازدواج اللغوي ، ولا يعود الفارق بين لغة الكتابة ولغة الحديث في الاقطار العربية المختلفة اكبر او اوسع من الفارق الذي نلاحظه اليوم بين لغة الكتابة ولغة الحديث في اللغات العالمية الكبيرة ، كالانكليزية او الفرنسية مثلا .

اما الحجج الفنية التي يقدمها الطرفان ، فتدور كلها حول الموازنة بين قدرة كل من الفصحى والعامية على التعبير اولا ، وعلى التأثير العاطفي ثانيا . فانصار الفصحى يرون انها اقدر على التعبير من العامية ، التي اصابها بالفقر والضمور الجهل والحرمان من الثقافة اللذين عانت منهما الشعوب العربية المختلفة في عصور التخلف ، والامية التي عانتها تلك الشعوب . وذلك بينما يرد انصار العامية بانه اذا كانت الفصحى اقدر على التعبير عن الحقائق العلمية والافكار الفلسفية والاجتماعية العميقة ، فان اللهجات العامية اكثر من الفصحى قدرة على اثارة المشاعر ومس عواطف الجماهير بحكم مخالطة تلك اللهجات لحياتها . ولما كان الادب هو ما يثير فينا ، بفضل خصائص صياغته ، انفعالات عاطفية واحساسات جمالية ، فان اللهجات العامية تعتبر اكثر اسعافا في تحقيق طبيعته . ويضيف انصار المذهب الواقعي في الادب ان استخدام لغة الحياة يعتبر عنصرا هاما وشرطا ضروريا للادب الواقعي ، وذلك بينما يرى آخرون ان الواقعية التي تستند الى واقعية لسان المقال ليست الا واقعية سطحية مبتذلة ، بينما الواقعية الحقيقية العميقة هي تلك التي تستنطق لسان الحال لا لسان المقال . فالكاتب الواقعي العميق هو الذي يجري على لسان شخصياته ما يمكن ان ينطق به لسان حالها ، خاصة وان لسان مقالها بالنسبة للشخصيات الشعبية كثيرا ما يكون عاجزا عن الفهم ثم عاجزا عن الافصاح ايضا . وهذا الادب الواقعي الحق هو الذي يستهدف تصوير حقائق الواقع . وليست اللغة الا وسيلة للتعبير ، والاديب يختار الوسيلة الاكثر اسعافا في صدق هذا التصوير .

واذا سئلت عن رأيي الخاص في هذه المشكلة ، لما ترددت في ترجيح الفصحى على اللهجات العامية ، لا للاعتبار القومي والديني فحسب ، بل وللاعتبارين السياسي والفني ايضا . فالحرص على الفصحى اعتبره عاملا على رفع المستوى الثقافي العام للشعوب العربية باعتبار ان اللغة هي وعاء الثقافة ، ومن المؤكد ان وعاء الفصحى اوسع واعمق بكثير من وعاء العامية . وما دامت الفصحى التي اوصي بها هي الفصحى السهلة المتطورة ، فانني اعتبر

استخدامها في التعبير الادبي وسيلة فعالة للقضاء على الامية العقلية بل والتمهيد ايضا للقضاء على الامية الابجدية ، باعتبار انهـا تدرب الاميين على التشبع بسليقة تلك اللغة . كما ان استخدام الفصحى اكثر مواتاة للادب من الناحية الفنية الخالصة ، بحكم اننا نعرف عـن يقين الخصائص الفنية لاسلوب التعبير الادبي في الفصحى . واما الاسلوب الفني في العامية فلم تدرس ولم توضح خصـــائصه المحددة حتى اليوم ، بحيث يخشى ان ينقلب الادب الذي يكتبه اصحابه بالعامية الى مجرد ثرثرة خاوية ، وذلك ما لم تعصم هؤلاء الكتاب حاستهم الجمالية وثقافتهم الواسعة العميقة من مثل هذه الثرثرة .

ومع كل ذلك فانا ارفض التعصب الاعمى ضد العامية ، وارى انه من الممكن استخدامها في بعض فنون الادب ، كما اثبتت التجربة في القاهرة : حيث حظيت المسرحيات الفكاهية والدرامات المحلية باقبال الجماهير وتذوقها والانفعال بها ، في حين ان كتـــاب المسرح لا يزالون يفضلون الفصحى بحق في المسرحيات التاريخية والفكرية العميقة والرمزية الاسطورية او الخيالية ، فضلا عن المسرحيات المترجمة عن اللغات العالمية . كما انني ارى ان في العامية مصطلحات وتراكيب يمكن استخدامها استخداما فنيا ناجحـا في تحديد البعد الاجتماعي لشخصيات القصة او المسرحية ، وكأن هذه المصطلحات والتراكيب بطاقـات هوية تلصق بتلك الشخصيات للدلالة على بيئتها المهنية او الاجتماعية او الاقليمية ، وذلك على نحو ما فعل كبار الكتـّاب العالميين ، امثال موليير وشيكسبير وغيرهما ، عندما يجرون على لسان بعض شخصياتهم من العبارات المعتبرة عامية في اللغة الفرنسية واللغة الانكليزية ما يحدد البعد الاجتماعي لتلك الشخصيات . والشيء الذي لا ارى مبررا له هو التزام العامية على طول الخط في الحوار داخل القصص ، باسم الواقعية ، فالواقعية التي نبحث عنهـــا ونرتضيها هي ، كما قلنا ، واقعية لسان الحال لا واقعية لسان المقال .

وفي اعتقادي ، آخر الامر ، ان النهضة التعليمية والثقافية الواسعة الآخذة في الانتشار اليوم في اقطار العرب المختلفة سوف تحل هذه المشكلة ، بحيث لا يعود هناك ازدواج لغوي بل ينحصر الفارق بين لغة الكتابة ولغة الحديث في حدود الفارق الموجود الآن فعلا والذي سيظل موجودا بين اللغتين في جميع بلاد العـــالم المتحضرة التي قضت على الامية ونشرت الثقافة على اوسع نطاق ، مثل انكلترا وفرنسا وامريكا والمانيا وغيرهـا ؛ وان كان هذا الحل لا يزال في حاجة الى كثير من الوقت والجهد ، ولكنه آتٍ لا ريب فيه .